الأَديبْ و المُفَكِّرْ الرَّاحِل
رَمَضان عَبْدِ الرَّحْمن لاَوَنْد
غورباتشيف

لا يـزال غورباتشـيف الـرئيس السـوفياتي لغـزاً غامضـاً عنـد كثـيرين مـن المهتمـين بمـا جـرى ويجـري في الإتحـاد السـوفياتي ... وفي مقدمـة المفكـرين السياسـيين الـذين لا يزالـون يقفـون مـن غورباتشـيف موقـف الحـذر والريبـة السـيد فلاديمـير بوكـو فسـكي الـذي تعتـبره الصـحافة الفرنسـية بخاصـة واحـداً مـن أشـد النقـاد السياسـيين الـذين طالما اتخذوا مواقف سلبية من النظام السوفياتي .

والسـيد بوكـو فسـكي يعتـبر مـن أشـهر المنشـقين علـى حكومـات موسـكو بعـد سولجانتسـيم . ذلـك أن كل موقف يتخذه من مجريات السياسة السوفياتية يعتبر حدثاً في ذاته.

ومما يلفت النظر أنه التزم بالصمت منذ ظهور منذ ظهور غورباتشيف زعيماً لبلاده عام ١٩٨٥. لقد كـان يتـابع الوقـائع السياسـية مراقبـا ومحـللا ومقـارناً في ضـوء معرفتـه الواسـعة بالرجـال المسـؤولين وبحقيقـة مـا يجري وراء الستار.

وأخـيراً خـرج إلى النـاس بكتـاب لعـب دور القنبلـة في الأوسـاط السياسـية الدوليـة . وقـد قـدم هـذا الكتـاب بالعنوان التالي : " **من اليوتوبيا إلى الكارثة** " أخرجته دار النشر الفرنسية " **روبير لافون** "

وقـد أعلـن هـذا الكتـاب حقيقـة المواقـف الـتي اتخـذها بوكوفسـكي مـن السياسـة الغورباتشـيفية بكـل وضوح.

****

تم تحميل هذا الملف من مكتبة الأديب الراحل رمضان عبدالرحمن لاوند (سيّد المنابر) www.RamadanLawand.com
مع الاحتفاظ بكامل حقوق الطبع و الملكية الفكرية ،لمزيد من المعلومات يرجى مراسلتنا :info@RamadanLawand.com

أخطر ما في الكتاب أن بوكوفسكي يطالب الغرب بالامتناع عن تشجيع مسيرة البيريسترويكا لأنها لا تستطيع أن تجنب الاتحاد السوفياتي من التعرض للإنهيار والافلاس . وهذا الموقف يستدعي بطبيعته الكثير من الأخذ والرد . ولئن صح ما ورد في فصول كتابه فان هذا يعني أن العالم سيتعرض لأخطار ردات سياسية وعسكرية واقتصادية لن تكون في صالح الأمن الدولي .

وإذا كان لرأي بوكوفسكي وزن خاص فلأنه ممن عايشوا التجربة الشيوعية وعرفوا الكثير من اسرارها الداخلية .على أنه ليس السياسي الوحيد الذي ينظر إلى سياسة غورباتشيف نظرة متشائمة فقد سبقه إلى اعلان مثل رأيه رجل لا يقل سعة علم وغزارة تجربة عنه هو رئيس جمهورية فرنسا الأسبق فاليري جيسكا رديستان الذي طالما أعلن عدم إيمانه بجدوى السياسة التي تسمى اصلاحية في الإتحاد السوفياتي . وكذلك الشأن بالنسبة لوزير خارجية أميركا الأسبق كيسنجر الذي تنكر لرأي المتفائلين . ثم هناك وزير الدفاع الأميركي الحالي الذي عارض فكرة تقديم المساعدات المالية على أساس انها ليست الحل الناجح . بينما اتخذ رونالد ريغان الرئيس الأميركي السابق وشاركته المرأة الحديدية السية تاتشر موقفاً إيجابياً. حتى أن السيدة تاتشر اعتبرت غورباتشيف رجلاً فائق الجرأة بل كادت تضعه في مرتبة الأبطال .

****

لماذا صيف وشتاء على سطح واحد ؟

سؤال تردد في كتاب بوكوفسكي : " لماذا نشجح الاصلاحيات في أفريقيا الجنوبية بتوقيع العقوبات بينما نشجع الاصلاحيات في الإتحاد السوفياتي بتقديم القروض والمساعدات ؟

بعد أكثر من أربع سنوات مضت بنشاط عنيف اذهل العالم تحت إسم " **بيريسترويكا** " فان على القادة السوفيات أن يواجهوا الكارثة : فاقتصادهم لا يزال أقل انتاجية . والعجز في الميزانية العامة بتزايد ، وأرتال المستهلكين أصبحت أكثر طولاً ، والسلع أصبحت أكثر ندرة . والثابت أن نصف الإجراءات التي تتمثل في اصلاحيات غورباتشيف الممتدحة جداً ، وفي عهده الجديد " نيوديل " التي يقصد بها انقاذ الاشتراكية ، لم تنجح في إيقاظ الحماسة الشعبية التي من المنتظر أن تحسن الريع المنشود .

****

وهذا يعني أن ما هو غير كاف في الميدان الإقتصادي يمكن أن يعرض للخطر سياسة القادة الحاليين. أن الإمبراطورية السوفياتية تتعرض اليوم لدوامة . فمن البلطيك إلى القوقاز ، تنهض الشعوب التي كانت " أسيرة النظام السابق " مطالبة باستقلالها الوطني.

وحتى في روسيا نفسها ، كانت الإنتخابات الأخيرة رغم ما احيطت به من الرقابة والتضييق قد كشفت عن تحديات نحو الحزب الشيوعي . وبنتيجة التضخم، اتخذت الاضرابات خطوات ، تهدد بتحويلها إلى اضراب عام شامل ، كما كان الوضع عام ١٩٠٥ أو "كما في بولونيا عام ١٩٨٠ ". وفي ضوء أنباء حديثة ، علم أن شرطة لينغراد كادت تعلن حالة الاضراب . وباختصار نقول : لقد تكلم الشعب : أنه يريد الديمقراطية . ليس الديمقراطية الاشتراكية ولا أي ديمقراطية . بل الديمقراطية التقليدية الحقيقية للجميع.

****

ومما يدعو إلى سخرية الأقدار أن غورباتشيف كلما زاد ظهور الفشل في سياسته الداخلية ، تعاظم نجاحه في الخارج وزاد اندهاشاً. وهذا يدعو إلى الافتراض بأن الديمقراطيات الغربية ستكون أعظم انتشاءً وسعادة حين ترى الشيوعية الملعونة قد تحولت إلى هباء. لكن الواقع غير ذلك . فالغربيون موجودون في الجانب السيء من الحاجز . ذلك أن الغربيين أعادوا نفخ النظام السوفياتي المفلس بفضل مليارات الدولارات والمساندة الدبلوماسية . إذ ليس المقصود فئة اليسار الأمنية أبدا على الرايات الحمراء للإشتراكية، بل هم المحافظون فيه الذين يبذلون كل جهد ممكن بالحفاظ في الاتحاد السوفياتي على ما يلقون به ويرفضونه بكل حزم في بلادهم . ها هم أولاء أكثر حماسة من شرطة لينغراد أنفسهم في مساندة غورباتشيف في مقاومته للقوى الديمقراطية التي تتزايد أكثر فأكثر .

****

الحقيقة ، أن الانفراج الحالي ، قد أعطى الوفاً من المكافحين السوفيات من أجل الحصول على حقوق الإنسان أو الحقوق الوطنية ، شعوراً بأنهم متروكون ، هذا إذا لم يكونوا مخدوعين ، من قبل الغربيين الذين يعتبرونهم من الأبطال ، بينما الملايين من أنصارهم في كل البلاد في حالة ضياع .

هؤلاء المكافحون السوفيات استمعوا على امتداد سنوات إلى الكثير من الكلام الرنان ، الذي كان لا يكاد يسمع في بعض الأوقات بسبب التشويش . وهو الكلام الذي طالما تحدث عن " صليبية الديمقراطيات" وعن " المدينة المشعة " تلك التي وضعت أمام الحواجز من قبل " امبراطورية الشر " .

لقد كانوا أشبه بالأطفال الجياع أمام واجهة مطعم مترف ، ممن لا يسعهم الا الصلاة بانتظار حدوث معجزة . وأخيراً أتيح لهم نصف حظ للدخول إليه في الوقت الذي يستعد فيه الملايين من مواطنيهم الذين خرجوا من سبعين عاماً من الخمول والبلادة والرعب في محاولة للدخول بدورهم ، وهنا يشعرون أن الغربيين على وشك أن يبيعوهم وأن يراهنوا على تعددية غورباتشيف الاشتراكية.

****

وعندما توقف التشويش الاذاعي استطاعوا أن يسمعوا رونالد ريغان البطل الأكثر شعبية للحرية في الاتحاد السوفياتي يمتدح غورباتشيف " **من أجل عودته إلى الجذور اللينينية** " . كما سمعوا مارغريت تاتشر، السيدة الحديدية ، التي أعلن حديثا عن أنها " **سيدة العام** " في الاتحاد السوفياتي ، تصف التخلي عن " **الشيوعية العجوز** " بأنه تحول تاريخي ، كما لو أنها اعتنقت بصورة مفاجئة الاعتقاد بوجود ليبيرالية شيوعية . بل أكثر من ذلك أنها فانها، وهي متوجهة إلى جمهور المستمعين السوفيات عبر قناة ب . ب . س الناطقة باللغة الروسية ، أعلنت أن مؤتمر الحزب الشيوعي المنعقد عام ١٩٨٩ م هو حجر الأساس الأول " **لحرية المناقشة** " ما دام أن الذين كانوا يعتلون المنبر لا يقرأون دائماً ما سجلوا من الملاحظات بل يقولون في بعض الأوقات ما تحفل به قلوبهم . أما من بقي من أهل البلاد أي نسبة ٢٩ في المئة ممن ليسوا أعضاء في نادي الكبار المغلق جداً ، فقد كانت تغرهم مشاعر فرحة كبيرة وهم ينظرون متأملين إلى الوليمة الحافلة على شاشة تليفزيوناتهم . والسيدة تاتشر راحت تضيف الاهانة إلى الازدراء ، حين دعت القوميات المختلفة ألى الالتزام بالولاء الصادق نحو الإتحاد السوفياتي ، " وطن القوميات " والاكتفاء

بالقليل المزيد من الحريات الدينية والثقافية على طريقة القبائل المختلفة في نيجيريا . وهذا بالطبع ، واقسم على ذلك ، قد أدخل الراحة إلى نفوس الليتوانيين واللاتفيين والايستونيين لأنه أكد لهم أن الاتحاد السوفياتي لا يزال " **امبراطورية الشر !** " وليس الكومنولث ، وأن أكثر الحكومات الغربية ومنها حكومة السيدة تاتشر لم تعترف أبداً بالحاق بلاد البلطيك .

****

قد يقال أن ما ورد على لسانها هو كلمات تمليها الضغوط الدبلوماسية، لكن الأفعال كانت أكثر ازعاجاً أيضاً .

ففي أكتوبر من عام ١٩٨٨ م عارضت الحكومتان البريطانية والأميركية عقد مؤتمر دولي لمناقشة حقوق الإنسان في موسكو ما دام أن السوفيات لم يفوا بما تعهدوا به . بل أن السيدة تاتشر ذهبت إلى أبعد من ذلك إذ أعلنت أنه سيكون " **خيانة لأولئك النساء والرجال الشجعان الذين يكافحون للحصول على حقوقهم في الإتحاد السوفياتي وفي أوروبا الشرقية** " وقد حدثت هذه الخيانة فعلا بعد ذلك بشهرين إثنين.

****

هناك من يتساءل : لماذا نشجع الاصلاحات في أفريقيا الجنوبية بفرض العقوبات لا بتقديم القروض . ولماذا لا نخطط لعقد مؤتمر حول حقوق الإنسان في بريتوريا . وبخاصة لماذا يجب أن تمزق الأيارتيد وأن تقرر حقوق السود مرة واحدة ، بينما نوافق على اصلاحات الشيوعية خطوة خطوة ؟ هذا مع العلم أن أمة يمتد وراءها ألف سنة من التاريخ أقدر على التكيف للديمقراطية من بعض القبائل الأفريقية .

إن الجواب على هذا التساؤل لا يلبث أن يقفز أمام العيون : أن أفريقيا الجنوبية لا تشكل تهديداً أبداً . ومهما تكن المبررات ، فإن فرحهم بما يجري في الاتحاد السوفياتي لا يكاد يخفي خوفهم بكل بساطة : " **علينا الا ندفع السوفيات إلى اليأس !** " أن صورة الحيوان الجريح ، وقد وضع ظهره إلى الجدار ، وتسارع في جسده الرعب ، هي من القوة بحيث تشل عقولنا وتمحو ذاكرتنا . ونحن نميل إلى نسيان أن كل هذه

الجراح هي إرادية ، وأن هذا اليأس يعود إلى عدد من العقود ، وبصورة خاصة أن هذا وتلك رغم كل جهودنا المبذولة للحيلولة دون الاحتضار ، أمر لا سبيل إلى تجنبه . إن كل أموال العالم لا تكفي لتحريك الاشتراكية واصلاحها . كما أن رجال الاتحاد السوفياتي لا يبدو أنهم مستعدون للعمل برأي مارك توين واحتياز حقوق دستورية والاحساس الجيد بعدم استخدام هذه الحقوق .

****

إن النظام السوفياتي على وشك الانهيار رغم كل مساعدات الغرب . فلماذا إطالة احتضاره وتوريث هذه المعضلة لأولادنا من بعد ؟ وربما يكونون أقل قدرة على التعامل معها . على أننا على الأقل لا نزال نملك الأوطان . فليس أصعب من اختيار الفترة الأسوأ لمساندة النظام الشيوعي في الاتحاد السوفياتي : ليس فقط أن مئات من سجناء البيريسترويكا لا زالوا وراء القضبان الحديدية ، ولكن يوجد كثيرون غيرهم ممن يوشكون أن يتلمسوا قضبان سجون الفلاسنوست . ففي نهاية عام ١٩٨٨م ، كان القادة السوفيات قد أدركوا أن اصلاحاتهم قد أجهضت ، واستعدوا لمواجهة النتائج . أن الاصلاحات الأكثر فاعلية من مثل " **تحرير الأسعار** " أو الاجراءات الهادفة إلى الغاء المركزية قد تم تعليقها . فقد وضعت قوانين جديدة لذلك بصورة مستعجلة ، منعت حرية الاجتماعات ، وقيدت حرية الصحافة ، وحددت نشاط التعاونيات ، وبخاصة ، أناطت بالجيش صلاحيات رجال الشرطة . وقد ترتب على ذلك أنه في الوقت الذي كان فيه الغرب يتساءل عن امكانية التراجع الفلاسنوست كان غورباتشيف يصدر تلك القوانين.

****

ولما ظهر أن هذا كله لم يوقظ الغرب ، فان الأحكام العرفية قد أعلنت في أرمينيا في الوقت نفسه. إن غورباتشيف وقد استغل بسخرية ظاهرة صدمة الزلزال بادر إلى الغاء لجنة كاراباخ كلها ، من أعضائها اثنان في مجلس السوفيات الأعلى في أرمينيا ، ومع ذلك فقد ابتلع العالم هذا كله . وفي حدود ما أعلم لم تصدر كلمة واحدة في فيينا لصالح هؤلاء الرجال الشجعان . فمن عساه يقيم أي وزن لمتطرفين ضائعين في

جبالهم البعيدة ؟ وبدلا من ذلك ، فان العالم الغربي أقدم على ارسال هباته إلى الاتحاد السوفياتي ، والتي لم يصل شيء منها إلى أرمينيا كما جاء في اعترافات الصحافة السوفياتية .

ثم جاء دور جورجيا حيث بسبب من الكوارث الطبيعية فان مئات من المتظاهرين الوادعين قد قطعت أجسادهم بالمعاول والرفوش من قبل وحدات " **سبت ناز** " وأبيدوا مسممين بالغازات القاتلة ، أو سحقوا تحت عجلات الدبابات وارغموا على الصمت بقانون الأحكام العرفية . هذا النوع من العلاج السريع والعنيف بدا فعالاً وناجحاً . وهكذا تم العثور على أكباش المحرقة في مجموعة من الأبرياء المحليين جرت التضحية بهم على مذبح الفلاسنوست اما الغرب فقد تنفس الصعداء وهكذا لم تجد الحكومات الديمقراطية كلمة واحدة تقولهم لصالح هذه الضحايا . فهي لم تشجب هذه المذبحة . وبدا العكس إذ شعرت بالخوف من أن هذا الحادث المؤسف قد يزلزل مركز غورباتشيف ويهدد سلامة البيريسترويكا. أما فيما يتعلق بالجيورجيين، ما الذي يهم من هؤلاء المهيجين المزعجين الذين يطالبون بأشياء غريبة شاذة من مثل الديمقراطية والاستقلال الوطني.

****

وفي وسعنا أن نتساءل عما إذا كان القادة الغربيون يؤمنون حقاً ببراءة غورباتشيف أو أنهم يعرفون كثيراً غير ذلك لكنهم يؤثرون الاحتفاظ بأفواههم مغلقة مخيطة . ان عليهم أن يعلموا بواسطة خبرائهم العسكريين بان وحدات " **سبت ناز** " هي الوحدات الوحيدة من الجيش التي دربت على القتل بالرفوش والمجاريف والتي لا يمكن أن تتدخل في قضايا داخلية دون أمر صادر عن القمة ، وهي تماما شبيهة بوحدات س . أ . س في بريطانيا . انها تشكل قوة استراتيجية تماماً كالقوة النووية .

فما عسى الأميركيون والإنجليز يفعلون فيما لو أن القيادة قد أنيطت يوماً بقائد مغمور محلي من سيبيريا بعد غارة نووية على أراضيهم ؟ ! هل في وسعهم أن يبتلعوا مثل هذا الحادث ؟

ما الذي يصيب القادة الغربيين ؟ لماذا يتصرفون على صورة شخصية في رواية كلاسيكية من القرن الثامن عشر ؟ أي على صورة مراهق مأخوذ عن نفسه يرثي لأمة لأنها قد أنهكت وفقدت قوتها من

التعب بسبب من جلدها لأبيه ؟ أنهم لا يبدون أي اهتمام ولا يحسون بأي عاطفة طيبة نحو الديمقراطيين الذين يذبحون . هل تعرضوا لسموم ما يسمى فيروس الكرملين ؟ وهل يصدقون حقاً بجدية طاولة المحافظين الذين يقتتلون ؟

في وسعنا أن نجيب عن هذه التساؤلات في حلقة قادمة بحيث نستبين بعض ما يجري وراء الستار الجديد الذي يسد له القادة السياسيون في الإتحاد السوفياتي .

- ظاهرة التكيف أو التمرد على الذات تتحقق بعد سبعين عاماً من المكابرة وتعذيب الذات.
- فيديل كاسترو والصين الشعبية يرفضان التعامل مع ألبييريسترويكا والفلاسنوست .
- العالم الغربي يتعامل مع الصين بصورة طبيعية رغم محافظتها الشديدة .
- صور من حياة الكوبيين في ظل نظام كاسترو.